

السيد محمد حسين الطباطبائي

علي

وَالفلسفَة الالٓهيَّة

الدار الاسلامية

علي والفلسفة الإلهية

تأليف

الأستاذ العلامة

السيد محمد حسين الطباطبائي

بسم الله الرحمن الرحيم

ما معنى الفلسفة والفلسفة الإلهية

الحمد لله ، والصلاة على محمد وآله الطاهرين

كان الإنسان ، ولسوف يبقى محباً للوجود الخارجي ، بخارجيته وواقعيته ، لا يهمه شيء سواه ، ولا يلتفت عنه إلى غيره ، ولا غير هناك .

ومن الواضح ــ بعد هذا ــ أن قضاء العقل وحكم الوجدان بالواقعية ، والإذعان بالوجود الخارجي (أن هناك موجوداً خارجاً) هو من العلوم الأولية ، والمعارف الأصلية ، تتطابق فيه جميع صفات البداهة ، وشرائطها ..

فالوليد الحديث السن بشعوره الطري ، الموهوب له ــ إذا تعمقنا في حالاته ــ نرى أنه أول الأمر يتناول الثدي ؛ ليتغذى باللبن المعد له فيه تارة ، ويتناول غير الثدي ؛ للغرض نفسه تارة

أخرى .. ولكنه بعد تعدد ذلك منه يقتصر على الثدي ـ في ذلك ـ ويعرض عن غيره ..

ثم بعد ذلك نراه يتناول المأكول ، من فاكهة ، أو خبزٍ ، او نحوهما ، ويتناول غير المأكول كالحصاة والخشبة ونحوهما ، ويلتقم ويمضغ هذا ، كما يلتقم ويمضغ ذاك . ثم .. وبعد تعدد ذلك منه لا يتناول إلا ما يصح أكله ، ويجتنب غيره .

وليس ذلك منه إلا لأن تصديقه الاولي بالواقعية الخارجية ، والوجود الحق يضطره إلى تمييز الحق من الباطل ، والصواب من الخطأ ... وبالجملة : تمييز كل واقعية من غيرها ، ثم التزام الواقعية ، والأعراض عن غيرها ..

وإذا توسعنا في الملاحظة والبحث ، وتصفحنا أحوال أبناء نوعنا ، اينما كانوا ، وحيثما وجدوا ، وأياً كانت الحالة التي هم عليها .. وجدنا أنهم يسلكون عين هذا المسلك ، ويسيرون في نفس هذا الطريق .. فلا يدخرون وسعاً ، ولا يألون جهداً في التمييز بين الحق والباطل ، والصواب من الخطأ ، في جميع شؤون حياتهم ، التي تنال عنايتهم ، وتحظى باهتمامهم .. فلا هم للأنسان إلا أن يحفظ نفسه من الوقوع في الخطأ والغلط ، ومن أن يأخذ غير الواقع على أنه الواقع ، أو العكس ..

وهكذا كان أيضاً حال الأمم والشعوب الخالية ، فرادى وجماعات ، فإنهم كانوا يبحثون دائماً عن واقعية الأشياء ؛

بهدف تمييزها من غيرها مما يشتبه بها ، ثم يأخذون بما يرونه حقاً وصواباً ، بحسب طلبتهم ، وعلى وفق بغيتهم ، يظهر ذلك بجلاء لكل من راجع ما يصفه التاريخ من سيرهم وسننهم ، ولاحظ آثارهم العمرانية ، وغيرها من أعمالهم .

هذا .. ولم يزل الانسان محباً ، بل ومغرماً بهذا النوع من البحث ، ـ وهذاهو بالذات ما نسميه بحثاً فلسفيا ـ في جميع ما يرتبط به وجوده ، ومختلف شؤون حياته ، وإن لم يشعر هو بذلك تفصيلاً ، ويلتفت إليه بالفعل ؛ فإن ذلك الدافع النفسي نحو التمييز ـ والذي يرتبط في الحقيقة بإنسانية الانسان ـ يقوم بعمله بانتظام ، ومن دون أي عيٍّ أو كلال ... ويسير الانسان قدماً في هذا الخط ، في جزئيات مقاصده ، ومبتغياته ، وما يرتبط بشؤون حياته المحدودة ... لكنه ربما عمم البحث بما جبل عليه من قريحة التعميم .. ليبحث عن الوجود ، وأنواعه ، وخواصه ، وأحكامه . من جهة عامة .. فيفكر في العلة والمعلول ، والامكان والوجوب ، والقوة والفعل ، والقدم والحدوث .

وهذه الابحاث والدراسات ، وإن كانت ليست بعيدة كل البعد عن شعور الإنسان ؛ حيث أنه يحس ويشعر بها إجمالاً ، إلا أنها هي التي نبهت الإنسان إلى الانتقال في البحث من عالم الطبيعة إلى ما وراء ها .. كما أنها هي التي حملته على التوغل في البحث عن أوائل الوجود ؛ عندما وجد أن العالم المادي في نفسه محتاج ، ومفتقر إلى غيره ، أي لا يقوم وجوده بنفسه من دون

أن يعتمد على ما يدفع عنه حاجته وخلته ؛ حيث كان استقلاله في وجوده دائماً محتاجاً ، ومنتهياً إلى ما لا يكون استقلاله في الوجود محتاجاً ومنتهياً إلى شيء آخر ... وهذه هي الفلسفة الباحثة عن الله عز أسمه ؛ لأنه هو الذي لا يحتاج استقلاله في الوجود إلى أي شيء آخر ، وتحتاج جميع الاشياء إليه ، في وجودها المستقل .

وهذا ، وإن كان في نفسه واحداً من تلك الموضوعات الكثيرة ، التي تطرح للبحث في الفلسفة العامة .. إلاّ أن الأهمية التي له تفوق أهمية أي بحث فلسفي آخر ؛ من حيث أنه يترك أثراً ظاهراً ، وهاماً جداً في كل الابحاث والدراسات الفلسفية العامة الأخرى ، من دون استثناء ؛ إذ أن الحصول على النتيجة فيه ـ وهو التوحيد ـ يحوِّل الأبحاث الفلسفية من حال التفرق ، والتشتت ، إلى حال التوحد ، والترابط ، والتآلف ويبرزها في حلة أبهى ، وزينة أكثر جاذبية ، وجمال أشد سحراً .. عندما يربط جميع الموجودات على كثرتها بموجود واحد ، هو باريها ومبديها ..

وهذه الحقيقة يجدها الباحث المتتبع واضحة جلية فيما ورثناه من الاقوال الفلسفية ، من « الهند » ، و « مصر القديمة » ، و « بابل » ، و « الروم » ، و « اليونان » ... وأيضاً في المأثور من كلمات المحصلين من فلاسفة الاسلام ..

هذا من جهة ...

ومن جهة ثانية .. فإن ما بأيدينا من الكتب السماوية ،

المنسوبة إلى « موسى » ، و « عيسى » ، وغيرهما ، عليهم السلام .. ثم ما حكاه الله في كتابه العزيز « القرآن » عن الأنبياء عليهم السلام ، على اختلاف طبقاتهم ، ثم ما ختم به ـ عز وجل ـ ذلك مما أوحاه على خاتمهم .. كل ذلك إذا تأمل الباحث فيه ، وتعمق في درسه يرى أن البحث في اللاهوت كان ولا يزال ينمو ويتطور ، ويتكامل في الصفاء والجلاء ، ويتدرج في درجات الكمال .. وكلما زاد في الوضوح والصفاء ، كلما اتسع أفقه ، وأنحلت به مبهمات ، واتضحت به مجاهيل ، بل وتقوَّمت به مطالب ساذجة ناقصة .. وسنزيد هذا المعنى إيضاحاً فيما يأتي انشاء الله ..

حقاً ، إنه لظلم عظيم أن يفرق بين الدين الإلهي ، وبين الفلسفة الإلهية .. فهل الدين ـ على إختلاف الاديان سعة وضيقاً ـ إلا مجموعة معارف اعتقادية إلهية ، يعبَّر عنها بالأصول ، وأخرى فقهية وأخلاقية ، يعبّر عنها بالفروع ؟.

وهل الأنبياء إلا رجال يهدون ـ بأمر الله ـ المجتمع البشري إلى الحياة الفضلى ، والسعادة الحقيقية ؟.

وهل السعادة البشرية الحقيقية إلا أن ينال الانسان حقائق المعارف ، بما منحه الله من جهازٍ ، دقيق لفهمها ، وإدراكها ، جهازٍ مرتبط بأصل خلقة الانسان وهو جزء من وجوده . وإن يسير ـ بعد نيله تلكم المعارف ـ في حياته العملية ، على طريق العدل والاستقامة ؟ .. وهل له مناص في تحصيل تلك المعارف عن الالتجاء إلى الاستدلال ، واقامة البرهان ؟.

وإذا كان الحال على ما تقدم .. فكيف يسوغ للأنبياء أن يدعوا الناس إلى السمع والقبول بلا بينة ، وأن يطلبوا منهم السير

على غير طريق الاستدلال ، وإقامة البرهان ، مع أن ذلك مخالف لجبلتهم ، ومناف لما جهزوا به في أصل خلقتهم ، وبنية وجودهم .

والأنبياء ـ وإن كانوا قد استمدوا معارفهم ، ومبادىء دعوتهم من المبدأ الغيبي ، وارتضعوا ذلك من ثدي الوحي .. إلا أن الحقيقة هي : أنه لا فرق بين مسلك الأنبياء في دعوتهم إلى صريح الحق ، وبين الحق ، سلوك الانسان بشعوره الفطري إلى نيل المعارف الآلهية ؛ حيث أنهم على رفعة مكانتهم ، واشرافهم على الأفق الاعلى ، قد تنزلوا إلى مستوى الافهام البشرية ، فكلموا الناس بما يهديهم إلى استعمال الفطرة الانسانية العامة ، وقد روى عن النبي (ص) أنه قال : «إنا معاشر الأنبياء أمرنا أن نكلم الناس على قدر عقولهم» (١) .

وحاشا ساحة الأنبياء عليهم السلام أن يحملوا الناس على أن يخبطوا خبط عشواء ، وأن يسوقوهم سوق البهيمة العمياء .. فإنهم (ع) كانوا ـ على عكس ذلك تماماً ـ إذا خاطبوهم خاطبوهم بما يفهمون ، وإذا أتوهم بآية معجزة ، فإنما يكون ذلك بعد أن تكون أممهم (الأنبياء) قد اعتبرتها صالحة للدلالة على صدق الدعوى ؛ فيحتج بها الأنبياء على تلك الأمم التي اعترفت ، بل وقررت واثبتت دلالتها على صدق دعوتهم الحقة ..

---

(١) أصول الكافي : ١ / ٢٣ .

وهو ذا القرآن أعدل شاهد على ذلك فيما يدعو إليه المجتمع الانساني من معارف المبدأ والمعاد ، وكليات المعارف الآلهية ، فهو لا يأخذ إلا عن حجة بينة ، ولا يدع إلا عن حجة بينة .ولا يمدح إلا العلم ، والاستقلال في الفهم ، ولا يذم إلا الجهل والتقليد ، قال تعالى : « **قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني** » [١] .. وخلاصة القول : إن الدين لا يدعو الانسان إلا إلى نيل الحقائق الآلهية بشعوره الاستدلالي ، الذي جُهِّز به ، وهذا هو بالذات ما يعبر عنه بـ : « الفلسفة الآلهية » . فكيف صح ـ بعد هذا ـ الفصل بين الدين الآلهي ، وبين الفلسفة الآلهية ، مع أنهما شيء واحد ، لا تعدد فيه ، ولا اختلاف ؟..

فلا قيمة إذن لما أصر عليه جمع من الباحثين الأوربيين ، واستحسنه آخرون من المسلمين ، من أن الدين يقابل الفلسفة ، وانهما معاً يقابلان العلم ، المعتمد على الحس والتجربة .. وأن النوع الانساني قد مر في أربعة أطوار : طور الأساطير ، وطور الدين ، وطور الفلسفة ، وطور العلم .

لا قيمة ، لأقاويلهم ، فإنهم أناس قد استحوذت المادة على عقولهم واستأثرت الطبيعة بكل تفكيرهم ، فلم يرفعوا أنظارهم عن الابحاث المادية ، ولم يخلعوا عن أنفسهم جلباب الطبيعة ، حتى ولو سويعة واحدة .. ثم حكموا من خلال المادة والطبيعة

---

(١) سورة يوسف : ١٠٨ .

على ما وراءها ، ونفوا كل ما لم يتكرر على حواسهم ؛ فزعموا أن الدين تقليد في أمر منظوم ، وأن الفلسفة استدلال على امر موهوم فلا في قضائهم عدلوا ، ولا في مزعمتهم أصابوا ..

ودع عنك أيضاً ما نهج به جمع من الباحثين المسلمين .. من أن الدين يرفض الفلسفة ، ويبطلها ، ولا ينسجم معها ، وأن الموقف الديني هو غير الموقف الفلسفي ، وهدف هذا غير هدف ذاك ...

فهؤلاء يفسرون الفلسفة على أنها مجموعة منظمة من أقاويل رجالٍ ، من يونانيين . وغير يونانيين ، وفيهم الملحد والمتقي ، والكافر والمؤمن ، ومنكر الصانع ومثبته ، والمخطيء والمصيب .. لا يراد من التعرض بالبحث لهذه الأقاويل إلا التشبه بهم ، ولا من التعلق بها إلا تقليد الجمهور من مشاهيرهم .

ولو كانت الفلسفة هي التي فسروا ، وحقيقتها هي التي ذكروا .. لكان الأجدر بها أن لا تكون ، ولكان الأحرى بكل من يحترم نفسه أن لا يتعرض لها ، ولا يمارسها ، وأن ينكرها الدين ، ويتبرأ منها ، براءة الذئب من دم يوسف .

ولكن الحقيقة هي ـ تماماً ـ خلاف ما زعموا ، وأما ما ذكروه فهو طريقة تتبع في بعض الصناعات ، التي يطمئن فيها إلى اجماع الرجال وشهرتهم ، وتستقرأ المذاهب فيها وتستقصى

ليكون ذلك دليلاً على التلازم بين مسائل متشتتة ، لا دليل له الا اتفاق الباحثين عليه .

وأما الفلسفة ـ التي قدمنا أنها البحث الاستدلالي عن الحقائق ـ فأنها لا تعتني بالرجال وأقاويلهم ، ولا باجماع العلماء وشهرتهم .. وليس يجوز لها أبداً أن تعتني ؛ إذ كيف يصح الاكتفاء عن معرفة الحق الصريح ، وأعيان الأمور .. بمعرفة ما قيل فيها وعنها ؟ وكيف يجدي في الحصول على سكون النفس ، واطمئنانها إلى الحقائق والواقعيات ، الالتجاء إلى آراء الناس ، ومذاهبهم فيها ؟.

فدع عنك هذه الأقاويل ، وتيقن أن الدين لا يدعو الا إلى الفلسفة الآلهية ، وهي الحصول على المعارف الآلهية عن حجة عقلية ..

فلسفة الإسلام الإلهية، أو كمال الفلسفة

استمرت الفلسفة الآلهية في الاتساع ، والقيام بعملية الجمع والربط بين مختلف المسائل والموضوعات التي تبحث عنها الفلسفة العامة ، على شدة تفرقها وتشتتها ـ ربطها باللاهوت .. حتى ظهر الاسلام ، وأخذ على عاتقه مهمة تعليم وتثقيف البشرية ، فسما ـ بالفلسفة الآلهية ـ إلى أوج كمالها ، وانتهى بها إلى غاية عظمتها ..

ولعل البعض يحمل كلامنا هذا على نوع من المبالغة والغلو في حق هذا الدين القويم ، وأنه إغراق لا مبرر له في مدحه ، وأنه ابراز له في حلة مدلسه لا قيمة لها إلا في سوق التخيل الشعري ، الذي يبتعد كثيراً عن واقع القضية وحقيقة الأمر ..

ولكننا بدورنا نقول لهؤلاء بكل ثقة واعتزاز : ما عليكم إلا أن تختبروا صحة ما نقول : وذلك بأن تقوموا بالدراسة ، والبحث والتمحيص لتعاليم الدين الاسلامي .. فإننا لا نشك أن أي باحث منصف ، يحسن الورود والصدور لا يلبث أن يرى أن الدين

الاسلامي في فلسفته الآلهية قدعمم البحث إلى حد أنه لا يشذ عنه أي شيء ، في الوجود من الأشياء العينية ، سواء في ذلك البحث في ذاتها ، أو صفاتها ، أو أفعالها «ومن تلك الأشياء الانسان ، في جميع شؤون وجوده» .. ويمضي الاسلام في طريقه هذا ، ولا يقف في بسط البحث اتساعاً وشمولاً عند حد ، حتى يربط كل شيء باللاهوت ، على نحو يليق بساحته تعالى ، ثم يعود فينعطف إلى عالم الحياة الانسانية ؛ ليعالج جميع شؤونها الخلقية ، والعملية ..

فقد جعل المعارف الآلهية أساساً وقاعدة للأخلاق الفاضلة ، والصفات الجميلة ، ثم جعل الأخلاق الفاضلة ، والصفات الجميلة أساساً للتشريع .

فمن تعاليم الاسلام [إذن] : تنبثق الصفات الفاضلة ، وتتميز بها عن الصفات الرذيلة ؛ فيدعو إلى تلك ، ويزجر عن هذه ، ثم يجعل الصفات الفاضلة هذه أساساً لتشريع القوانين ، والأنظمة ، التي تنظم أفعال الأنسان وسلوكه ، وتضمن له الحياة الفاضلة السعيدة ، بمعناها الشامل .

وبذلك يصير «التوحيد» وحده هو الأصل الحاكم ، في جميع شؤون عالم الوجود بحسب تعاليم الاسلام ، حيث إن الاسلام يربط كل شيء ـ كما قلنا ـ باللاهوت ، وينهي كل شيء إليه ، في مختلف مجالات الحياة ، وجميع احوالها وشؤونها .

وهكذا ... يشاهد الباحث عن كثب أن كل قضية علمية كانت ، أو عملية في الاسلام ، هي : « التوحيد » قد تلبَّس بلباسها ، وظهر في زيها ، وتنزل في منزلها ، فبالتحليل ترجع كل مسألة وقضية إلى « التوحيد » ، وبالتركيب يصيران شيئاً واحداً ، لا مجال للتجزئة ، ولا للتفريق بينهما ..

وهذا معنى ما قدمناه من أن الاسلام قد إنتهى بالفلسفة الآلهية إلى أوج كمالها المتصور ؛ إذ أن ما أتى به من شأنه أن يُسري حكم اللاهوت إلى كل علم ، وعمل ، و« ليس وراء عبادان قرية » ..

وهذا في الحقيقة قوة هائلة جهز الله بها دينه القويم ، فبها أقام صرحه ، وشيد بنيانه ؛ فإن العلم لا يحفظ ، ولا يتربى ، ولا يتكامل إلا مع العمل ، فما لم يرتبط العلم بالعمل ، فلا مناص لبقائه ، ولا كافل لنمائه .. على أنه قد تقرر في الأبحاث النفسية أن الانسان ـ وهو موجود فعال ، بقاؤه وكماله مرهونان بفعله ـ بحسب صنعه ، وتكوينه قد صنع وكوِّن بحيث يهتدي إلى افعاله عن طريق شعوره بها ، وبحاجة إليها ، فيشتاق شيئاً فيريده ، ويكره شيئاً فيمسك عنه ، هذا بالنسبة إلى الجزئيات المحسوسة ومنها ينطلق إلى التعميم والتوسعة ، لكل شيء ، وفي كل شيء يناله فهمه ، ويقع عليه ادراكه .

فالانسان يسير ـ بحسب تكوينه وصنعه ـ إلى نيل ما يحتاج

إليه في حركاته الجسمية ، والروحية من العلوم والمعارف ، فلا حاجة للانسان إلى ما لا تعلق له في عمله ، ولا يرتبط به ، ولا يدركه ادراكاً تاماً ، ولا يصفو له علم شيء إذا فارق العمل ، وإلى ذلك يشير قول علي (ع) : « العلم مقرون بالعمل ؛ فمن علم عمل ، والعلم يهتف بالعمل ؛ فإن اجابه ، والا ارتحل عنه »[1] .

ويظهر ذلك بوضوح إذا قايسنا حال الفلسفة الآلهية ، التي ربما يوجد شيء منها لدى الشعوب المتمدنة اليوم ، بحالها في الأسلام .. حيث إن أولئك ـ أعني الشعوب المتمدنة ـ اليوم قد فصلوا بين الفلسفة الآلهية ، وبين الأعمال ؛ فاستقلت القوانين العملية السائدة بينهم عن الدين استقلالاً تاماً .. أما الاسلام فقد وضع قوانينه العملية على أساس الأخلاق ، المبنية على أصل التوحيد .. ومن هنا ، فإنك ترى عياناً أن الفضلاء والمفكرين من أولئك ، لا يكادون يفقهون ، حتى المسائل البسيطة من الفلسفة الآلهية .. وأما المسلم الواعي ، المحترم لشؤون دينه ، فإن لله عز أسمه نصيباً في قيامه وقعوده ، ونومه ويقظته ، وحياته وموته ، وظاهر شخصيته وباطنها ؛ ولهذه الاحاطة التامة ، ومن

---

(١) أنظر شرح نهج البلاغة ، للشيخ محمد عبده طبع مصر ص ٢٣١ ، الحكمة ٣٦٦ . ويقرب منه ما رواه في الغرر والدرر « العلم بالعمل ، ثمرة العلم والعمل للحياة ، وخير العلم ما قارنه العمل » راجع شرح الغرر والدرر للخونساري ، من منشورات جامعة طهران ، الجزء الأول ص ٦٢ ، والجزء الثالث الصفحة ٣٢٨ ، ٣٢٦ .

أجل سراية التوحيد إلى جميع شؤون الرجل الآلهي . تسنى له الوقوف في موقف التأله ، وثبتت له قدم صدق في معرفة اللاهوت التي احاط حكمها بكل شيء ؛ إذ لولا هذه الاحاطة ، ولولا سراية اللاهوت إلى جميع شؤون الرجل الآلهي ، لم يتهيأ له ذلك بديهة ؛ إذ كيف يتم الفصل والقضاء فيها مع عزل أشياء عن حكمها ؟ وكيف يعرف الله من أنكر أو اهمل سلطانه ، في شيء من مملكته ؟.

القضاء قضاءان : حقوقي وعلمي

ليس على القاضي في الحقوق إلا أن يعرف ماهية الموضوع الذي وقع فيه الشجار والخلاف « وهي قضية جزئية حية ، من شأنها أن يتصورها كل من اطلع على أطرافها وجوانبها » ثم يقضي بما يتلائم مع القوانين الموضوعة والمتبعة ، وليس عليه إلا أن يتبع العدل في قضائه ، ولا يفرق بين ما يراه وبين ما يقضي به .. وهو إنما يقضي في أمر اعتباري وضعي ، ويتبع في قضائه جريان الأحداث في الخارج ..

وأما القاضي في مسألة علمية ، فإنه أشد محنة ، وأعظم بلاءاً ، ولا سيماً إذا كانت تلك المسألة فلسفية ..

فمن جهة يجذبه الحس إلى المحسوسات الجزئية ، المتشخصة في الخارج ، ولا يدعه يتوجه إلى الكليات ، والأمور الخارجة عن حومة المادة ، والطبيعة ، والتي لا تنفع فيها مقاييس المادة ، ولا تجدي معها الشواهد الطبيعية الجزئية ، بل وتعجز عن التعبير عنها اللغات المبينة للمقاصد ، والكاشفة عما في الضمائر ؛ حيث إن

الألفاظ إنما وضعت لتعبر عن حوائج مادية جزئية ، وليست إلا قوالب لها ، وإذا ما استعملت في الفلسفة ، فإنما يكون ذلك بعد تجريدها عن غواشي المادة ، واستبعاد المشخصات التي توجب جزئيتها ؛ وإذن كل مكان تستعمل فيه الالفاظ معرضاً للخطأ والالتباس ؛ ومن ثم للزلل والخطل في المعارف التي تؤديها تلك الالفاظ ، وتجعل قوالب لها .

ومن جهة ثانية تعرفه عواطفه الباطنة ، الداعية له إلى اتباع الهوى ـ تصرفه ـ عن الحق ، الذي هو بغيته ومنيته ، وتحوّل نظره عن هدفه الأسمى هذا إلى أغراض تافهة أخرى ، تقربها منه ، وتز ينها له ..

ولهذا .. فإن من الطبيعي أن لا يصل إلى المعارف الحقيقية إلا أفراد قلائل قدتجردوا من جلباب المادة والطبيعة ، وأفلتوا من شراك الهوى ، وتخلوا عن زبارج ، وبهارج هذا العرض الأدنى .. وإن شئت فقل : لا يصل إليها إلا من تبرأ من سيئات الأعمال ، وتنزه عن رذائل الملكات والأحوال ، ونذر نفسه ووجوده لله ، لا هم له إلا الحق الصريح ، ولا ينشد إلا الواقع الأصيل والصحيح ..

هذا ... وإن ثمة مثالاً حياً تمثلت به الفلسفة الآلهية ـ التي نعنيها بالكلام المتقدم ـ .. هذا المثال هو الإمام علي بن ابي طالب (ع) ، الذي هو المثال الحقيقي البارز للفلسفة الآلهية ، والذي

لا يخطيء المتمثل به ، ولا يضل ..

ومن أجل إدراك هذه الحقيقة فما على الباحث إلا أن يجيل نظره فيما يذكره التاريخ الصحيح ، مما يتعلق بحياته الحافلة بالفضل والفخار ، وأيضاً الزاخرة بالمحن والبلاء ، في جنب الله عز أسمه ، ثم يقيس ـ لو جاز القياس ـ المأثور من كلامه (ع) في المعارف الآلهية ، بالمأثور من كلام غيره من صحابة النبي (ص) ، وغيرهم من علماء التابعين ، ومن دونهم .. ثم يتعمق في البحث ، في غرر كلامه في الفلسفة الآلهية ، فإنه سوف يجد ، دون أدني شك وشبهة ، صدق ما ذكرنا ، وحقيقة ما إليه أشرنا .

فقد ولد (ع) قبل البعثة ، وكان أبوه شيخ بني هاشم ، أبو طالب ، بن عبد المطلب ، بن هاشم ، وأمه : فاطمة بنت أسد .. ثم تربى في حجر النبوة ، ولم يزل على ذلك حتى بعث النبي (ص) ؛ فكان أول من آمن به ، ولما يبلغ الحلم ، وقبل النبي ذلك منه أحسن قبول ، وكان (ص) قد شرط لأول من آمن به الخلافة والوصاية في ملأ من قومه ، ثم لم يزل (ع) ملازماً للنبي (ص) ، ملازمة الظل لديه ، قبل الهجرة ، وبعدها إلى حين وفاته (ص) ، فكان هو (ع) آخر من فارق النبي (ص) ، فارقه حينما وضعه في ملحود قبره الشريف وكان (ص) يخصه من خلوته وجلوته ، ومسارته ومحاضرته ، بما لا يخصص به أحداً سواه ..

وكان (ع) أخطب العرب بعد النبي (ص)، وأفصحهم، كما أنه كان أعلم الأمة بعده (ص)، وهو القائل: «علمني رسول الله ألف باب من العلم، ينفتح من كل باب ألف باب» [1]

وكان أورع الناس، وازهدهم في دنياه، وأرأف الناس نفساً بالضعفاء، والأرامل، والأيتام، وأرق الناس للفقراء والمساكين، وكان لا يختلف عنهم في حياته وزيه، حتى في في أيام حكمه، وتسلمه لزمام الخلافة الاسلامية العامة ..

وهو الشجاع ذو النجدة، الذي لا يذكر التاريخ من يعدله ويدانيه، وبه وبسيفه قام عمود الدين، كما أنه كان أشد الناس في جنب الله، لم يترفع عن حق قط، ولم يهو إلى باطل قط ..

وليس غرضنا هنا الثناء عليه، وبيان فضائله؛ فهو لعمري المقياس الذي يقاس به الفضل، والميزان الذي توزن به الأعمال .. فإن البحث الفلسفي يتجنب التعرض لمدح الرجال أو قدحهم، والثناء عليهم أو الازراء بهم، كما أننا ليس لنا غرض آخر من ذلك كالاحتجاج لمذهب معين أو غيره ..

وإنما غرضنا من الايماء إلى بعض صفاته، وبعض شؤون حياته، هو أن نلفت نظر الباحث الحصيف، إلى أن يقوم ببحث

---

(١) راجع: احقاق الحق، الطبعة الأخيرة المنقحة، المزدانة بتعاليق ثمينة نافعة، لسماحة العلامة المتتبع السيد شهاب الدين المرعشي، دام ظله الجزء ٦ ص ٤٠، إلا أن فيه: «يفتح» بدل: «ينفتح».

نفسي ، وأخـلاقي في جـوامـع صفاتـه (ع) ، ثم يقيس بعضها إلى بعض ، ويقارن بينهـا ؛ ليستنتج أنه كان (ع) قـد أوتي الكمال الحقيقي في قـواه الجسمية والروحيـة كما أنه أيضاً منح كل الكمال لنفسه ، القيِّمة على إدراك الحقائق وتحصيل المعارف .. فإن هذا في الحقيقة هو غاية ما تشترطه الفلسفة ، وبشكل خاص الفلسفة الآلهية ، فيمن يحاول أن يتناولها بالبحث ، والتمحيص ، ويتعرف فيها على الحقائق ، وينال المعارف .. فإنها لا تنشد إلا انساناً يبلغها نظره ، ويسعها صدره ، وتحرسها تقواه ، وينثرها بيانه ، فيما ينثر من تعاليم ..

وإن العجيب في امر الإمام علي (ع) أنه بلغ الغاية في مختلف جهات الفضائل الانسانية ، فهو بحق الإمام في كل باب ، والمثال الحق في كل غاية كريمة .. على خلاف مانجده من حال النوابغ ، وشخصيات الأفذاذ من رجال التاريخ .

إننا نجد الرجل إذا كان شجاعاً باسلاً ، شديد البأس ، رابط الجأش ، لا تزعزعه الأهوال ، ولا تروعه مقارعة الابطال ـ نجد الرجل هذا ـ عادة ـ قصير الباع في التدبير والتفكير ، قليل الحظ من الرأفة والرقة .

ونجد الرجل العابد المتزهد المتورع ، مغرقاً في الزهد والعبادة ، وعارفاً بسبل رياضة بدنه ، ومجاهدة نفسه ، ولكنه قاصر في

سياسة الدولة ، وادارة الأمة ، لا يقوى على تمييز النصيحة من الخديعة ، ولا يلتفت إلى المكائد ولطائف الحيل .. وهكذا ، في مختلف الموارد ، وسائر الافراد ، فإنك لا تكاد تجد من يجمع أكثر الصفات والخصال الحميدة فضلاً عن كلها ؛ وليس ذلك إلا لأن النفس الانسانية تمتلك قدراً محدوداً من الهمة ، فإذا اجتمعت الهمة على أمر ، ضعفت بطبيعة الحال في سائر الأمور الأخرى ، وإذا وزعتها على مقاصد شتى ، وقسمتها بينها ضعف الجميع ، ولم يمكن الوصول في الكل إلى درجة الكمال المطلوب إذ « ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه » [1] .

أما الإمام (عليه السلام) فلم تكن فضائله النفسية ناشئة عن تهذيب سبقه تروٍّ وتأمل فكريان ، ولم يسلم أمره إلى هوى نفسه ، لتختار له الجهة التي عليه أن يصرف همته فيها .. وإنما أخذته جذبة إلهية ، أنسته غيره سبحانه ، وأزالت من نفسه كل المآرب البشرية ، التي تشده إلى نفسه ، وتقربه منها ، ولم تبق منها شيئاً ، وانتزعت كل الشهوات الغريزية ، التي توجهه نحو الملذات الآنيَّة ؛ فلا شيء بعد شده نحو نفسه ، ولا شيء أيضاً يزين له الشهوات والملذات الدنيوية ، بل كل همه هو الحق ، والحق فقط فهو الغاية ، وإليه سوف تكون النهاية . .

وهذا هو الذي جعله عليه السلام يعطي كل موقف حقه ،

---

(١) سورة الأحزاب ، الآية : ٤٠ .

وهداه إلى الحق فالتزمه .. وكان معه ، حتى عند اختلاف الدواعي والبواعث [٢] ..

---

(٢) قد ذكرنا في بحث قرآني أوردناه في كتابنا : تفسير الميزان : أن طرق تهذيب الأخلاق ، المشروعة ، ثلاثة :

الأول : طريق الحكماء الباحثين في الأخلاق ، ويتلخص هذا الطريق : بتشخيص الأخلاق الفاضلة ، وتمييزها عن غيرها ، بواسطة ما هو شائع عند العقلاء تحسيناً وتقبيحاً .. أي أنهم يستدلون على الأخلاق الفاضلة بمدح العقلاء وثنائهم على المتخلق بها ، وعلى الأخلاق الذميمة بذمهم ، وزرايتهم عليه ، فإذا عرف الأنسان الأخلاق الفاضلة من غيرها ، بواسطة ذلك الميزان ، وهو تحسين العقلاء وتقبيحهم ؛ فما عليه إلا أن يتخلق بالفاضلة منها ، إيثاراً للحسن العام الشائع ، والثناء الجليل ..

فالحكيم الباحث في الأخلاق يقول : الشجاعة والعفة ، والصدق مثلاً ، أمور يستحسنها العقل ، ويمدحها الناس ، فعلى الأنسان العاقل إذاً أن يتخلق بها ايثاراً للحسن .. والكذب والنميمة والخيانة مثلاً يفجها العقل ، ويذمها الناس ، فعلى العاقل إذن أن يتجنبها ، ويبتعد عنها .

الثاني : طريق الأنبياء : وهو : الاستدلال على الأخلاق الفاضلة برضى الله سبحانه ، وعلى الأخلاق الرذيلة بسخطه وعقابه ، فرضى الله ، وسخطه ، هي المقياس للأخلاق الفاضلة ، والرذيلة .. فعلى الأنسان أن يؤثر منها ما يهدي إلى الجنة ، ويحترز مما يؤدي منها به إلى النار .

الثالث : الطريق الذي اختص به الاسلام ، وهو الاستدلال على الأخلاق الفاضلة بنور التوحيد الخالص ، فإن الأنسان إذا علم أن الوجود الحق ، هو الله سبحانه ، علم أنه هو الرب المالك لما عنده غيره من الوجود ، وآثار الوجود ، من من دون أن يملك غيره شيئاً ، من ضرٍ أو نفع ، أو موت أو حياة ، أو نشور ، وإذا علم ذلك وتيقنه فلسوف لا يريد حينئذٍ إلا ما أراده الله ، ولا يكره إلا ما كره الله ؛ حيث إنه يرى أن نفسه لا تملك شيئاً ، حتى يشتغل نفسه بعجب أو =

وهذا يتضح لنا تماماً إذا راجعنا ما بأيدينا من سيرته ، وحياته كما أنه يلوح بل يتضح من أطراف ما بين أيدينا من كلامه (ع) ؛ فهو القائل : « ما رأيت شيئاً إلا ورأيت الله قبله » [1] ، والقائل : « لو كشف الغطاء ما أزددت يقيناً » [2] ، وهاتان الكلمتان من حيث معناهما الفلسفي من أروع الكلام ، وأجمعه ، وقد قال النبي (ص) : « لا تلوموا علياً ؛ فإنه ممسوح في الله » [3] . وقال أيضاً : « علي مع الحق والحق مع علي » [4] . ونحن في غنى عن

---

(١)
(٢) شرح الغرر للخونساري ج ٥ ص ١٠٨ ، وشرح النهج لابن أبي الحديد ، طبع مصر ، ج ١ ص ١٤٢ .
(٣) وفي احقاق الحق : « لا تسبوا علياً ، فإنه محسوس في ذات الله » ، راجع ج ٤ ص ٢١٦ .
(٤) شرح النهج ج ٢ ص ٢٩٧ ، واحقاق الحق ج ٥ ص ٦٢٢ .

= مرح أو خرن ، أو غير ذلك من مشتهيات النفوس ولا يرى أيضاً لغيره تعالى أثراً ، أو خطراً في هذا الوجود ض فلا أحد يملك له نفعاً ليرجوه ، ويطمع فيما عنده ، أو يدفعه لأن يذل له بغير حق ، أو أن يبغي عليه بغير الحق .. كما أنه لا أحد يملك له ضراً ، ليخافه على نفسه ض فيذل له ، أويبطل حقاً ، ويحق باطلاً من من أجله .. وعلى هذا القياس ..

فالتوحيد الخالص يعالج الداء ، وبه ومنه يكون الشفاء ، من غير حاجة إلى ما تقدم في الطريقين السابقين ، من وسائط ووسائل .

والفرق بين الطريقين المتقدمين يدفعان الداء ، بمعنى أنهما يعالجانه بضده . نظير العلاج الجسماني .. أما طريق الاسلام ؛ فإنه يرتفع معه موضوع الرذيلة . من أصله ، لا أنها تكون موجودة ثم تدفع عن هذا الفرد أو ذاك ..

قياس المأثور من كلامه "ع" بكلام غيره

بعث رسول الله (ص) في عصر سماه القرآن : « عصر الجاهلية » ، ـ وما أحراه بهذا الاسم ـ ، وكان عامة العرب آنذاك اميين ، لا يقرأون ولا يكتبون ، ولم يكن فيهم أثر للعلم والثقافة ، وليس لديهم شيء من سنن المدنية ، بل كانت حياتهم حياة فوضى وهمجية ، يرتزقون من قطع الطرق ، وشن الغارات ، وينشدون الأشعار في المباهات بسفك الدماء ، وهتك الحرمات ، والمفاخرة بآبائهم واسلافهم .

وقد أثبتت البحوث والدراسات في « الأخلاق الانسانية ، واسبابها » أن الأمة التي هذه حالها ، وعلى ذلك جرت سنتها ، تكون مرتعاً خصباً للعصبية الجاهلية العمياء ، التي هي السم الناقع للفلسفة الالٓهية ؛ فإن العصبية تذهب باستعداد النفس الانسانية لتقبل الحق ، ولا تبقى من ذلك الاستعداد شيئاً .

ومن الصعب جداً أن يتهيأ لأمة هذه حالها ظرف صالح ، يخرج تلك الأمة من ظلم الجهالة ، وينفي عنها رذائل الأعمال

المهلكة ، ويعوضها عنها ، أولاً : بالأعمال الصالحة . ويبهمها ثانياً : الحكمة ، والموعظة الحسنة . ثم ينتهي بالأمر ثالثاً : إلى الفلسفة الآلهية ، وعند ذلك يتم التكامل الانساني . وتلتقي سعادة الدنيا ، وسعادة الآخرة . وإلى حيث المنتهى

وإذا تتبع الباحث الناقد ما وصل إلينا من خبر . تفصل لنا أحوال صحابة النبي (ص) . وتحكي أقوالهم ... يرى هذه الحقيقة ، التي أشرنا إليها . رأي العين . وإن أغلب هذه الأخبار قد تضمنت عرضاً لأعمالهم الصالحة . التي يلوح منها اتباعهم للسنة النبوية ، أو متضمن احداثاً ترتبط بالدعوة الدينية وشؤونها . وقليل من هذه الأخبار ما يشتمل على الحكمة . والموعظة الحسنة . وتعاليم الدين ، وأما الذي يشير منها إلى معارف حقيقية . ويرمز إلى فلسفة إلهية ، تأخذ الألباب وتشد القلوب وتربطها بسرادق العزة والكبرياء ، وساحة العزة والبهاء ـ أما هذا النمط منها ـ فهو أشذ وأندر ، بل لعل الحديث الذي يتعرض لذلك ـ رغم أنه غريب في محتواه ومضمونه ـ لا يتجاوز عدد أصابع اليدين ،أو حتى لا يبلغه .. وليس فيما ورثناه منهم من الكلام في المعارف ، إلا أخبار التجسيم ، والتشبيه ، أو التنزيه ، وبعض الأخبار المشتملة على معارف ساذجة وبسيطة ، ومعان عادية ومبتذلة .. مع أن عدد من ترجم له من الصحابة يبلغ الأثني عشر ألف نسمة .. ولم تأل الأمة جهداً في النقل عنهم ، واحصاء أقوالهم ورواياتهم ..

لكننا نجد كلام الإمام علي بن أبي طالب ، عليه أفضل

السلام ، الذي كان يفيض بالمعارف الحقيقية . وتحار فيه النفس الوالهة الخائضة في الفلسفة الآلهية ـ نجد كلامه (ع) ـ يلتقي معه الفكر الانساني ، ويرتقي معه ، إلى أن يصل الفكر إلى أوج مرتقاه ، حتى إذا كلَّ ووقف ، كان كلامه (ع) السائر وحده في مراقي الحقائق ، لا يشق له غبار ، ولا تناله الأوهام ولا الأفكار ..

ولسنا نعني بذلك توحد كلامه في بلاغته ، أو تفرده في حلاوته ، أو غير ذلك فإن ذلك وإن كان حقاً إلا أنه خارج عما نحن بصدده .. وإنما نعني كلامه الذي يزخر بالمعارف الحقيقية ، والفلسفة الآلهية ، ونلفت نظر الباحث ، المتعمق في الفلسفة الآلهية ، الخائض في معرفة اللاهوت « ونوجه الكلام إليه » ـ نلفته ـ إلى نظير قوله (ع) في بعض كلامه ، وكم له في كلامه من نظير :

« فمن وصف الله فقد قرنه ، ومن قرنه فقد ثناه ، ومن ثناه فقد جزأه ، ومن جزأه فقد جهله ، ومن جهله فقد أشار إليه ، ومن أشار إليه فقد حده ، ومن حده فقد عده » (١) . وقوله (ع) : « كل مسمى بالوحدة غيره قليل ، وكل عزيز غيره ذليل ، وكل قوي غيره ضعيف ، وكل عالم غيره متعلم » (٢) ، إلى أن قال :

---

(١) نهج البلاغة ، شطر من الخطبة الأولى ، ورواه في التوحيد ، تحف العقول مع اختلاف غير يسير في التعبير .

(٢) نهج البلاغة الخطبة رقم ٦٣ ص ١٢١ (عبده ، مصر) .

« وكل ظاهر غيره باطن ، وكل باطن غيره ظاهر » وقوله في صفة العالم العلوي : « صور عارية عن المواد ، خالية عن القوة والاستعداد » [٣] .

فليتأمل الباحث في الفلسفة الآلهية ـ ليتأمل ـ في سلوكه الفني ، وهو ينضد مسائل التوحيد ، ويرتب بعضها على بعض ، وليتأمل أيضاً في سيره على طريق البرهان الساطع ، وهو يأخذ بمجامع المواد في كل برهان يقيمه ، وحجة يحتج بها .. ثم في دقة ما كشف عنه ، من غوامض مسائل اللاهوت ، وبعد مرماه فيها ..

وتفرُّدُ كلامه في هذا المضمار ، وسموه إلى المنزلة التي يقصر عن الاطلاع عليها كثير من الافهام ، دعا بعض المتعصبين إلى انكار صدوره كله ، أو أكثره منه عليه السلام .. أو دعا بعض المحدِّثين إلى أن يتمجمج في بعض كلامه (ع) قائلاً : إنه لا يشبه كلامه ..

مع أن المنقول من كلامه (ع) ذو سياق واحد ، منسجم كل الأنسجام ، مترابط كل الترابط يلتوي بعض اطرافه على البعض الآخر ، ويصدِّق بعض اجزائه البعض الآخر .. كما أن أكثر كلامه (ع) مروي مسند ، مودع في كتب التاريخ ، وجوامع الحديث .

(٣) شرح المنظومة ص ١٩٠ .

يضاف إلى ذلك أن كلامه (ع) لا يشبهه شيء من كلام غيره ؛ فهانحن بين أيدينا الشيء الكثير من كلام غيره ، من مختلف الطبقات الفاضلة ، في هذه الأمة ، كالصحابة وكبار التابعين ، والمتكلمين ، والحكماء ، والعرفاء ، والأدباء ..

والعادة قاضية بأن من يقدر أن يضع مثل هذا الكلام ، الزاخر بالعلم ، والحكمة ، والثقافة ، المهيمن على سائر الكلام، وينسبه إلى رجل ؛ ليرفع به قدره ، ويشهر أمره ـ العادة قاضية ـ بأن يصدر منه في مختلف أحواله ، وجاري أيامه ، ما يماثل ذلك الكلام ، الذي صنعه ، ونسبه إلى غيره .. مع أن مثل هذا الكلام لم ينسب ، ولا أثر عن أحد من هذه الأمة على الاطلاق ..

على أن من يستطيع أن يصنع مثل هذا الكلام ، والذي له هذا القدم الثابت في العلم بالله وآياته ، كيف تطاوعه نفسه أن يحلى بمثل هذا الكلام غيره ، ويعطل نفسه ، بحيث يبقى هو مهملاً ، وفي زوايا الخمول ، إلا أن يكون مصاباً في عقله ، والمصاب في عقله عن صنع مثل هذا الكلام ووضعه أعجز ، وعن الورود في شرعة هذه الفلسفة المتعالية أبعد .

على أن في كلامه (ع) جملاً وفصولاً لم تكن العلوم الاستدلالية ، التي كانت دائرة بين السلف من علماء المسلمين ، من متكلميهم وفلاسفتهم ، وغيرهم ، قادرة على تفسيرها ، وتوجيهها ، إلا بضروب من التأويل ، واللف والدوران ، إلى أن

تمكن العلماء في العصور الأخيرة من حل عقد عدة من المسائل الحقيقية وكشف القناع عن كثير منها .. وذلك ككلامه (ع) في أن كمال التوحيد نفي الصفات ، وأن الله لايحيط به عقل ، وأن الله ليس بواحد بالعدد ، وأن الله هو الدليل على نفسه ، لا يعرف بغيره ، وكل ما سواه معروف به ، وغير ذلك ..

وإذا كان الأمر كذلك ، فمن هو الذي يتوقع منه ، أو يؤمل فيه ، من قدماء الباحثين ، أو الرواة في صدر الاسلام أن يكون محيطاً بعامة الحقائق ، ومدركاً لها بهذا العمق يودعها في أوجز كلام ، ثم ينسبها إليه عليه السلام .

نماذج من كلامه "ع" في الفلسفة الإلهية

إن الباحثين في الفلسفة العامة ، والفلسفة الآلهية بالخصوص ـ وأوجه كلامي إليهم ـ يعلمون أكثر من أي شخص آخر أن البحث الفلسفي ، لا يتيسر إلا بالاستنتاج من البراهين المحضة .. وهذه البراهين عبارة عن تأليف خاص بين مقدمات بديهية ، وقضايا ضرورية ، يضطر الانسان إلى التصديق بها اضطراراً مطلقاً ، أو مقدمات نظرية مستنتجة من البديهية ، ومنتهية إليها ..

فالباحثون ـ على هذا ـ يعلمون أن البحث الصحيح عن مواد المسائل ، في هذا الفن ، إنما يؤتي ثماره عندما يتجرد الانسان عن جميع معلوماته التي اكتسبها عن طريق التقليد ، وسائر الاسباب الاتفاقية .. والتي تترك لها آثاراً في الانسان ، وينفعل معها بما يلائمها ، من أنواع الانفعالات ، من عادةٍ ، أو تخيل ، أو أي عاطفة من سائر عواطفه الكامنة فيه ..

نعم .. ان على الانسان أن يتجرد من ذلك كله ، ويلقيه جانباً ، بمحض توجهه نحو البديهيات والتصديقات ، التي لا يمكن

لأي شيء آخر أن يصرف نفسه عنها ، إذا ما توجهت إليها ، وليستنتج منها ـ من ثم ـ أول معلوم نظري مكتسب ، ثم ينتقل منه إلى الذي قبله .. ثم إلى الأقدم فالأقدم ، وهكذا حتى يبلغ ما هو بالغه من حقائق المعارف ..

وهذا النوع من الدراسة والبحث لا يؤتي ثماره إلا بالتزام بالترتيب والتدرج في السير العلمي من السابق رتبة إلى لاحقه .. ولا يستقيم البحث إلا على هذا النحو .. وإلا عاد البحث البرهاني ، بحثاً جدلياً ، مبنياً على التسليم لأمور مسلمة من الفرضيات ، والأصول الموضوعة ..

هذا .. ولا يسعنا في هذا المختصر أن نستوفي تفسير ما سوف نورده من نماذج كلامه (ع) ، ولا أن نعطيه حقه من الدراسة والبحث الفلسفي ، الذي لا بد فيه من استفراغ الوسع ، ومزيد من الجهد ، فإن كلامه (ع) زاخر بالمقاصد الفلسفية الدقيقة ، وحقائق المعارف الآلهية السامية .. غير أننا سوف نشير ـ بعض الاشارة ـ في ضمن ما يأتي ـ إلى مكانة المسألة التي يتعرض لها في كلامه (ع) ، وموقعها من الأنظار الفلسفية [1] ، حتى يراجعه المراجع إن شاء ، ثم يقيس مستوى كلامه (ع) بمستوى كلام غيره ..

---

(١) وهذا غاية ما يمكن القيام به ، في مجال تفسير كلام أحد من رجالات العلم ، في خلال ترجمته .

ـ ١ ـ

اسلوب التحقيق العلمي، وطريق السير إلى الحقيقة

من كلامه عليه السلام : « **رأس الحكمة لزوم الحق** »[١] .

وفي هذا المعنى قوله (ع) : « **عليكم بموجبات الحق فالزموها ، وإياكم ومحالات الترهات** »[٢] .

يشير عليه السلام بذلك إلى طريقة البحث العلمي عن الحقائق والطريق الذي من شأنه أن يوصل إليها ، فقرر عليه السلام أن ذلك الطريق هو البرهان والدليل ، الذي لا يعبأ معه باتفاق الرجال على قول ، أو كونه مسلماً لدى العظماء منهم ، أو مشهوراً بينهم ، فالحق حق أنكره الناس أو عرفوه ، والباطل باطل قبله الناس أو رفضوه .

ومن لطيف البيان في هذا الباب قول السابع من أئمة أهل

---

(١) شرح الغرور والدرر ج ٤ ص ٥٣ . وتمامه : « . وطاعة المحق » وقريب منه قوله (ع) : **أفضل الأعمال لزوم الحق** ، وقوله : **بلزوم الحق يحصل الاستظهار**.. ورجع ..

(٢) نفس المصدر ص ٣٠١ .

البيت عليهم السلام في وصية منه لهشام : « يا هشام لو كان في يدك جوزة ، وقال الناس : لؤلؤة ، ما كان ينفعك وأنت تعلم أنها جوزة . ولو كان في يدك لؤلؤة ، وقال الناس : أنها جوزة ، ما ضرك وأنت تعلم أنها لؤلؤة »[1] الحديث .

ومن كلامه (ع) الذي يرتبط بما نحن فيه ما شاع عنه مرسلاً : « **لا تنظر إلى من قال وأنظر إلى ما قيل** »[2] . وقوله (ع) : « **لا علم كالتفكير** »[3] .

---

(١) تحف العقول ص : ٤٠٦ .

(٢) شرح الغرر والدرر ج ٦ ص ٢٦٦ ، ولكن فيه .. وأنظر إلى ما قال . فراجع .

(٣) وفي نهج البلاغة : « **لا علم كالتفكر** » ، (عبده ، مصر) ص : ١٦٨ .

- ٢ -

المراحل الخمس لمعرفة الله تعالى

ومن كلامه عليه السلام : « **أول الدين معرفته ، وكمال معرفته التصديق به ، وكمال التصديق به توحيده ، وكمال توحيده الاخلاص له ، وكمال الاخلاص له نفي الصفات عنه ؛ لشهادة كل صفة أنها غير الموصوف ، وشهادة كل موصوف أنه غير الصفة ، فمن وصف الله فقد قرنه ، ومن قرنه فقد ثناه ، ومن ثناه فقد جزأه ، ومن جزأه فقد جهله ، ومن جهله فقد اشار إليه ، ومن أشار إليه فقد حده . ومن حده فقد عده** » [١] .

هذا بيان واف لمراتب معرفة الله ، وبالتعبير الاصطلاحي : شرح لمراتب التفكير الباحث في الفلسفة الآلهية ، من حيث سذاجته ، إلى أن ينتهي الأمر إلى عمقه ، ودقته . كما هو الحال في كل ما يتناوله الانسان في دراساته العلمية ، حيث يبدأ بالسهل الساذج ثم يتدرج في مراتب الدقة والاتقان ، في حدود طاقاته الفكرية والعقلية .

---

(١) نهج البلاغة ، شطر من الخطبة الأولى .

ومراتب معرفة الله تعالى على ما بينه الإمام عليه السلام خمس :

الأولى : معرفة الله ، والاقرار بألوهيته ، وهي : الاعتقاد النظري بأن للعالم إلهاً ، والاعتقاد النظري هذا يشترك فيه المشرك، والموحد ، كالوثنية ، والثنوية ، وأهل الكتاب ، والمسلمين . وكذلك يدخل مع هؤلاء كل من اعترف بالإله ، واذعن بوجوده وصدق به ، وخضع له ، أو اقتصر على مجرد العلم النظري ، مع تكبره ، واستنكافه عن عبادته تعالى ، فمراده عليه السلام من الدين في قوله : « أول الدين معرفته » ، مطلق الدين ، المقابل للزندقة والالحاد .

الثانية : التصديق به ، والتصديق هذا هو الذي يوجب خضوع الانسان له في عبوديته ، وبهذا التصديق يرسخ الاعتقاد ، ويثبت ؛ ولذلك كان هذا التصديق . كمال المعرفة .. ومن كلامه (ع) في هذا الباب أيضاً قوله : « **لا تجعلوا علمكم جهلاً ، ويقينكم شكاً . إذا علمتم فاعملوا ، وإذا إستيقنتم فاقدموا** » [١] . وقوله : « **العلم مقرون بالعمل** » [٢] . وبذلك ـ أي بالعمل ـ يمتاز الموحد المتعبد ، عن الملحد المتكبر .

الثالثة : توحيده تعالى ، وهو اثبات أنه تعالى واحد لا شريك

---

(١) نهج البلاغة ص : ٢١٢ مجلد ٢ ، وفيه : إذا تيقنتم ..

(٢) قد أشرنا إلى مصدر هذا الحديث فيما سلف ، فراجع .

له ، وبذلك يمتاز دين التوحيد عن أديان الشرك . التي تثبت مع الله آلهة أخرى ـ تعالى الله عن ذلك ـ ، والتوحيد هو كمال التصديق كما قال عليه السلام : « **وكمال التصديق به توحيده** » .

الرابعة : الأخلاص له تعالى ، بالاعراض عما سواه علماً وعملاً ، وقصر الوجود الحق وحصره فيه تعالى ، وأن ما يدعون من دونه هو الباطل ، وإذا كان ذلك انتفى عنه تعالى كل حد واقع أو متوهم ، أو مفروض ، فيكون واحداً بكل ما لهذه الكلمة من معنى ، لا يمكن حتى فرض شريك أو شركاء له ؛ فإن ذلك « فرض محال ، لا فرض المحال » .. وقد تكرر في كلامه (ع) أنه تعالى واحد لا بالوحدة العددية ، التي تقتضي أنه لو فرض من نسخه آخر صار اثنين .. بل وحدته بحيث لو فرض معها ثان ، لم يحصل التعدد بل كان هذا المفروض الثاني عين ذلك المفروض الأول .

توضيح ذلك : أن فرض الآله تعالى يستلزم ـ بحكم العقل ـ فرض وجوده على أي تقدير مفروض ، فلو فرض هو ولا شيء معه ، كان حقاً متوحداً ثابت الوجود ، ولو فرض ومعه شيء كان أيضاً ثابت الوجود ، ولو فرض غيره فقط ولا شيء مفروضاً معه كان تعالى أيضاً ثابت الوجود ، وهو ظاهر واضح ، تعالى . حق ثابت على أي تقدير مفروض . وما كان شأنه لم يكن لوجوده الحق قيدٌ أو شرط . كيفما فرض ، وإلا لم يكن ثابت الوجود مع زوال ذلك الحد ، وارتفاع ذلك القيد أو الشرط ؛ فوجوده

تعالى محض الثبوت الحق ، الذي ليس معه حد من الحدود العقلية والوهمية ، والخارجية ، فهو حق غير محدود وكل ما سواه من الاشياء فهو محدود لا محالة ؛ وإلا لكان موجوداً على أي تقدير كان ، وهذا معناه أنه واجب الوجود بالذات .

وإذا كان تعالى هو محض الحق ، الذي لاحد لوجوده ، ولا نهاية لذاته .. لم يكن للعقل أن يفرض من سنخه موجوداً آخر ، يكون هو الثاني لذلك الأول ، إذ أن « صرف الشيء » لا يتكرر .

وهذا سنخ من الواحد غير الواحد العددي الذي للعقل أن يفرض معه آخر [1] « وإن لم يكن في الخارج » فيصير اثنين .. وهكذا ..

---

(١) ونظير ذلك ما رواه المجلسي (ره) في بحار ج ٣ ص ٢٠٦ – ٢٠٧ من أن اعرابياً قام يوم الجمل إلى أمير المؤمنين . فقال : يا أمير المؤمنين . أتقول : إن الله واحد ؟ » ؛ فحمل الناس عليه . وقالوا : يا أعرابي أما ترى ما فيه أمير المؤمنين ، من تقسم النفس ؟ ؛ فقال أمير المؤمنين : دعوه ، فإن الذي يريده الاعرابى هو الذي نريده من القوم . ثم قال :

« يا أعرابي » ، إن القول في أن الله واحد ، على أربعة أقسام ، فوجهان منها لا يجوزان على الله عز وجل . ووجهان يثبتان فيه . فأما اللذان لا يجوزان عليه فقول القائل : واحد ، يقصد به باب الأعداد ، فهذا ما لا يجوز . لأن ما لا ثاني له لا يدخل في باب الاعداد . أما ترى أنه كفر من قال إنه ثالث ثلاثة ؟..

وقول القائل : هو واحد من الناس ، يريد به النوع من الجنس ، فهذا ما لا يجوز ؛ لأنه تشبيه ، وجل ربنا وتعالى عن ذلك .

وأما الوجهان اللذان يثبتان فيه . فقول القائل : هو ليس له في الاشياء شبه كذلك ربنا ، وقول القائل : إنه عز وجل أحدي معنى ، يعني به أنه : لا ينقسم في وجوده . ولا عقل . ولا وهم . كذلك ربنا عز وجل .

وهذا هو الذي يرمي إليه (ع) في قوله : « **وكمال توحيده الاخلاص له** » . وقد بينه (ع) بياناً برهانياً في آخر كلامه ..

وبعد هذا تأتي المرتبة الخامسة فإنه تعالى إذا كان حقاً على الاطلاق ، ووجوده غير محدود ، فلا يمكن للمفاهيم الذهنية أن تحيط به ، ولا أن تنطبق عليه تعالى حق الانطباق ؛ لأن المفاهيم محدودة في أنفسها ؛ ولذا ترى أن مفهوم العلم يمتاز عن مفهوم القدرة ، وليس في أحدهما أي شيء بل أي خبر عن الآخر ، ومفهوم القدرة لا ينطبق على مفهوم الحياة ، ومفهوم الحياة منفصل عن مفهوم العلم ؛ فكل مفهوم لا يسع إلا نفسه ، وليس فيه من المفاهيم الأخرى أي أثر أو خبر ، وكذلك ليس في المفاهيم الأخرى عنه أي خبر أو أثر . « وإن كان ربما تتحد مصاديق هذا المفهوم وتتطابق مع مصاديق المفهوم الآخر ، لكن الكلام ليس في المصاديق » .

وإذا كان الإله سبحانه ــ على كل تقدير ــ غير محدود بحد موجود ، وهو حق على الاطلاق ، فإن المفاهيم الذهنية ، التي يصف العقل بها كلما أراد أن يَعْرِفَه ، أو يعرِّفه لا تستطيع أن تتناوله ؛ فتحيط به ، وتنطبق عليه . وهكذا نرى أن التعمق في معنى الاخلاص قد أدى إلى نفي الصفات عنه تعالى ؛ فيصح إذن أن يقال : إن نفي الصفات عنه تعالى هو كمال الاخلاص له .. وهي المرتبة الخامسة ــ كما قلنا ــ من معرفة الله تعالى وقد عناها (ع) بقوله : « **وكمال الأخلاص له نفي الصفات عنه ، لشهادة**

كل صفة أنها غير الموصوف ، وشهادة كل موصوف أنه غير الصفة » [1] .

فهو تعالى ـ كما ورد ـ له الأسماء الحسنى ، والأمثال العليا ، ولو لم يكن تعالى ، يملكها ، لم يمكن أن يجود بها على من سواه ، ولم يملكها غيره ، لكنه أجلُّ من أن ينال إدراكه غيره بوصف أو أن يحيط به نعت ، فكل من وصفه بوصف فقد جهله .. فعند هذا الاخلاص يدرك العقل النظري قصوره وعجزه عن إدراكه تعالى ، والاحاطة به ؛ فإن وسيلة العقل الوحيدة إلى توصيف الاشياء هي المفاهيم والمعاني الذهنية ، وقد قدمنا أنها ـ أي المفاهيم ـ متمايزة بحسب ذواتها ، منفصل بعضها عن البعض الآخر ، ومن لوازمها المحدودية . فالعقل عندما يسبغ عليه تعالى وصفاً ما ، فإنه بنفس حكمه بالاتحاد بينهما يحكم ـ من جهة التوصيف والاثبات ـ بنحو من المغايرة بينهما ؛ فإذا وصفه فقد قرنه بالوصف ، ولا يتم قرنه به إلا بالتثنية ، ولا تتم التثنية الا بالتجزية ، ولا تتم التجزئة إلا بإشارة عقلية إلى هذا وذاك ، ولا تتم الاشارة إلا بضرب حدٍ فاصلٍ بينهما ، يمتاز به أحدهما من الآخر ، ولا يتم التحديد إلا بعروض الوحدة العددية ، وانتفاء التوحيد الحق .

وعند ذلك يتحير العقل في قضائه ، ولا يجد مناصاً عن أن

---

(١) فمراده (ع) بيان أن مفاهيم الصفات لا تنطبق عليه تعالى ـ على نحو الحقيقة ، وأما مصاديق المفاهيم ، فهي تشهد أنها هي الموصوفات ، وبالعكس .

يجله تعالى عن التوصيف ، وينفي عنه ثانياً ، ما وصفه به أولاً ، بل وينفي حتماً هذا النفي ، الذي هو توصيف بنحوٍ .

وهذا هو الذي أشار إليه (ع) بقوله قبل هذا الكلام : « الذي لا يدركه بعد الهمم ، ولا يناله غوص الفطن ، الذي ليس لصفته حد محدود ، ولا نعت موجود ، ولا وقت مورود ، ولا أجل ممدود »[1] .

ومن أجمل والطف كلامه في هذا الباب قوله الآتي نقله :

« لا يشمل بحد ، ولا يحسب بعد ؛ وإنما تحد الأدوات أنفسها ، وتشير الآلات إلى نظائرها »[2] .

فمثل العقل بالنسبة إلى معرفة الله سبحانه ، كمثل الانسان يغترف ماء البحر بكفه ، فالكف في اغترافها لا تريد إلا الماء من غير أن تحده بحد ، لكنها لا تنال إلا ماء بقدرٍ ..

وقد عدعليه السلام عجز العقل هذا معرفة ؛ إذ بدأ بالمعرفة ، وختم بهذه المرحلة .

---

(١) شطر من الخطبة الأولى في نهج البلاغة ، وفي الغرر والدرر ج ٤ ص ٣٨٩ : « **غوص الفطن لا يدركه ، وبعد الهمم لا يبلغه** » .

(٢) نهج البلاغة ج ١ ص ٣٧٦ .

ـ٣ـ

في تحقيق معنى التوحيد

ومن كلامه عليه السلام في مجال التوحيد أيضاً قوله : « **بان من الأشياء بالقهر لها ، والقدرة عليها ، وبانت الأشياء منه بالخضوع له ، والرجوع إليه ، من وصفه فقد حده ، ومن حده فقد عده ، ومن عده فقد ابطل أزله** » [1] .

فنرى أنه (ع) في كلامه هذا قد بنى نفيه للوحدة العددية عن الله تعالى على كونه تعالى أزلياً .. بيان ذلك ..

أن الأزل هو الوجود غير المسبوق ، والوجود الذي هذا شأنه غير محدود بحد ، وليس معنى نفي الحد عنه أن يكون موجوداً في أزمنة غير متناهية سابقة ؛ إذ أن لازم وجوده في ازمنة سابقة غير متناهية هو انطباقه على الزمان ، ولازم الانطباق على الزمان كون الشيء حركة ، أو ذا حركة ، متغيراً بتغيرها ، متحولاً بتحولها تعالى الله عن ذلك ... ـ لا ... ليس معناه ذلك ـ وإنما معنى

(١) نهج البلاغة ج ١ ص ٢٩٣ ، الخطبة رقم : ١٥٠ / أو / ١٥٢ .

نفي الحد عن الوجود غير المسبوق .. أن الشيء ذو حق من دون أي قيدٍ أو شرط ، أي ثابتاً على كل تقدير ، واقـع ، أو مفروض ، لا يطرأ على ثبوته الحق تغير ولا تبدل على الاطلاق . والوجود الذي هذا شأنه لا يمكن أن يكون في عرض وجوده موجود حق آخر ، إذ لو كان لكان لا بد من امتيازه عنه بحد فاصلٍ مميز بينهما ، وهذا يعني أن الوجود الحق المطلق يصير مقيداً .

فتكون النتيجة أن وجوده الحق غير متناه ، وكل موجود سواه باطل في نفسه ، « أي لا يقوم إلا بالله سبحانه » متناه في ذاته ، مفتقر إليه .. فكل شيء غير الله يفرض وجوده متصفاً بأحد صفات الكمال ، كالوجود ، والحياة ، والعلم والقدرة ، والارادة ، ونحوها ، لا بد وأن يكون خاضعاً له تعالى ، مفتقراً إليه ، ذليلاً لديه ؛ بسبب قيامه به تعالى ، ومحدوديته ، التي تكشف عنها حدوده ، والله سبحانه هو القاهر له ، لكونه الحق المطلق ..

وهذا ما يرمي إليه عليه السلام بقوله : « **بان من الأشياء بالقهر لها ، والقدرة عليها ، وبانت الأشياء منه بالخضوع له ، والرجوع إليه** » . ثم إنه استنتج من ذلك ، ورتب عليه نفي الصفات عنه تعالى ، فراجع عبارته المتقدمة ..

وقد قال عليه السلام في كلام آخر له ، في معنى الأزل :

« **واحد لا من عدد ، دائم لا بأمد ، قائم لا بعمد** »[1] .فبين (ع) بهذا الكلام أن دوامه تعالى دوام غير زماني ..

(١) توحيد الصدوق ص ٧٠ ، وفي النهج ج ١ ص ٣٧٢ : واحد لا بعدد .. فراجع ، ورواه الصدوق في العيون أيضاً ..

ـ ٤٠ ـ عدة مسائل
فلسفية غامضة في كلام له "ع" في التوحيد

ومن كلام له (ع) في التوحيد : « **دليله آياته ، ووجوده إثباته ، ومعرفته توحيده، وتوحيده تميزه من خلقه، وحكم التمييز بينونة صفةٍ ، لا بينونة عزلةٍ . انه رب خالق غير مربوب مخلوق، ما تصوِّر فهو بخلافه** » .. ثم قال بعد ذلك : « **ليس باله من عُرف بنفسه ، هو الدال بالدليل عليه ، والمودِّي بالمعرفة إليه** » [1] .

ولعمري .. إن هذا الكلام ليدهش اللب ، ويبهر العقل ، ويتضمن عدة مسائل من الفلسفة الآلهية ، بأوجز بيان ، وأقوم برهان ..

منها : أن الواجب « تعالى » يمتنع أن يعرف بغيره ، بل هو الدليل على نفسه ، وعلى كل شيء ؛ إذ أن من الضروري أن تكون دلالة الدليل ، وتأدية المعرفة مستندة إليه تعالى ؛ وإلا لكان الدليل في خصوص دلالته ، والمعرفة في خصوص تأديتها مستقلين عنه تعالى ـ تعالى الله عما يقوله الجاهلون ـ وهذا هو

---

(١) رواه الطبرسي في الاحتجاج .

ما يشير إليه (ع) بقوله : « **الدال بالدليل عليه** » .

ومنها : أن الواجب « تعالى » لا تنال ذاته المقدسة بالمعرفة، وإنما الذي تناله المعرفة شيء من صفاته ، وقد تقدمت الاشارة منه (ع) إلى ذلك بقوله : « **دليله آياته** » ، وقوله : « **ليس باله من عرف بنفسه** » .

ومنها : أن الواجب « تعالى » مستغن عن الاثبات ، بل يمتنع ذلك فيه ؛ إذ أنه تعالى له الوجود الحق الذي لا يحده شيء ، ومن كان هذا شأنه يمتنع أن تناله الأذهان ، ويحيط به العقل ، فيكون وجوده الخارجي ، وأثباته شيئاً واحداً ، ويتحد فيه الثبوت والاثبات ؛ فهو متعال عن العلم والجهل الذهنيين ؛ فاما أن يكون معلوماً بالذات ، لايجهل بحال ، ولا يغيب عن شيء ، ولا يفقده شيء .. واما أن يكون مجهول الذات ، جهلاً تاماً .. لكنه تعالى ، لا يغيب عن شيء ، ولا يفقده شيء ؛ فهو معلوم غير مجهول .. وقد بين عليه السلام هذه الحقيقة في كلام آخر له ، فقال : « **المعروف بغير كيفيته ، لا يدرك بالحواس ، ولا يقاس بالناس ، ولا تدركه الابصار ، ولا تحيط به الأفكار ، ولا تقدره العقول ، ولا تقع عليه الاوهام . فكل ما قدره عقل ، أو عرف له مثل ، فهو محدود** »[١] .

---

(١) توحيد الصدوق ص ٧٩ .

ومما ورد عن النبي (ص) في هذا المعنى قوله « **التوحيد ظاهره في باطنه ، وباطنه في ظاهره . ظاهره موصوف لا يرى ، وباطنه موجود لا يخفى ، يطلب بكل مكان ، ولا يخلو عنه مكان طرفة عين ، حاضر غير محدود ، وغائب غير مفقود** » [٢] .

وهذا هو السر في أننا لانجده « تعالى » يقيم في كتابه المجيد برهاناً على أصل الذات ، وإنما يبرهن على الصفات ، فيبرهن مثلاً على أن للعالم صانعاً ، ورباً ، وخالقاً ، ومرجعاً ، ونحو ذلك ..

ومنها : أن البرهان على وجود الواجب تعالى برهان على توحيده . فإن الذي يدل عليه صريح البرهان على وجوده ، هو أن الواجب تعالى هو الوجود الحق ، غير المحدود بأي حد على الاطلاق ، وهذا هو بعينه التوحيد ؛ فإن من كان هذا شأنه لا يتصور له العقل ثانياً ؛ فإن حرف الشيء لا يحتمل التعدد ، وإليه الاشارة بقوله (ع) : « **ومعرفته توحيده** » .

ومنها : أن وحدة الواجب تعالى ليست عددية ، حتى يتميز في الوجود عن غيره ، وينفصل عنه بحدٍ يؤدي التعدد .. بل إن وحدته بمعنى : أنه تعالى لا يشاركه شيء في معنى من المعاني : فهو رب خالق ، منه كل شيء ، وبه كل شيء ، وإليه كل شيء وغيره مربوب مخلوق ، منه ، وبه ، وإليه وجوده .

---

٢ - معاني الأخبار ص ١٠ .

وهذه المسألة وأمثالها ، هي من المسائل التي بقيت مجهولة ، لم تحل منذ دونت في الفلسفة الألهية ، حتى وفق إلى حلها بعض فلاسفة المسلمين المتأخرين ، مستفيداً من كلامه (ع) ، ومهتدياً بنور علمه .

- ٥ -

في علمه تعالى بغيره وعلم الغير به، وتقدمه على الأشياء

ومن كلامه (ع) : « **الحمد لله الذي أعجز الأوهام عن أن تنال إلا وجوده ، وحجب العقول عن أن تتخيل ذاته ، في امتناعها من الشبه والشكل ، بل هو الذي لم يتفاوت في ذاته ، ولم يتبعض بتجزئة العدد في كماله ، فارق الاشياء لا على اختلاف الأماكن ، وتمكن منها لا على الممازجة ، وعلمها لا بأداة . لا يكون إلا بها ، وليس بينه وبين معلومه علم غيره . إن قيل : كان. فعلى تأويل أزلية الوجود ، وإن قيل : لم يزل ، فعلى تأويل نفي العدم ؛ فسبحانه وتعالى عن قول من عبد سواه ، واتخذ إلهاً غيره علواً كبيراً** » [1] .

يشير عليه السلام في هذا الكلام إلى مسألة : أنه تعالى معلوم لغيره علماً حضورياً لا حصولياً ؛ وإلا لو كان العلم به حصولياً من دون أنه تتبعض إذا عرض لها الحصول في الذهن والخارج ، وهذا

توحيد الصدوق ص ٧٣ .

ينافي وحدته ، وتميزه عن غيره .

ويشير أيضاً (ع) إلى مسألة أنه تعالى عالم بغيره علماً حضورياً ، من غير توسط صورة علمية بينه وبين معلومه : والا لاحتاج في علمه إلى الصورة ، التي هي الأداة ..

ويشير (ع) كذلك إلى مسألة تقدمه على الاشياء باطلاق وجوده ، المنزه عن التقييد ، بأي حدٍ عدلي ، وهو تفسير لأزليته تعالى ..

- ٦ -

في بيان معنى صفاته تعالى العليا

فمن كلام له (ع) في هذا الباب قوله : مستشهد بكلية الأجناس على ربوبيته ، وبعجزها على قدرته ، وبفطورها على قدمته ، وبزوالها على بقائه ؛ فلا لها محيص عن إدراكه ، ولا خروج من احاطته بها ، ولا احتجاب عن احصائه لها ، ولا امتناع من قدرته عليها . كفى باتقان الصنع لها آية ، وبمركب الطبع عليها دلالة ، وبحدوث الفطر عليها قدمة . وباحكام الصنع لها عبرة ، فلا إليه حد منسوب ، ولا له مثل مضروب . ولا شيء عنه بمحجوب . تعالى عن ضرب الأمثال . والصفات المخلوقة علواً كبيراً » (١) .

---

(١) توحيد الصدوق ص ٧١ .

-٧-

توضيح صفاته الثبوتية السلبية

فمن كلامه عليه السلام في هذا الخصوص قوله : « ما وحده من كيَّفه ، ولا حقيقة أصاب من مثَّله ، ولا إياه عنى من شبَّهه. ولا صمده من أشار إليه وتوهمه. كل معروف بنفسه مصنوع ، وكل قائم في سواه معلول ، فاعل لا باضطراب آلة ، مقدر لا بجول فكرة ، غني لا باستفادة ، لا تصحبه الاوقات ، ولا ترفده الأدوات ، سبق الأوقات كونه ، والعدم وجوده ، والابتداء أزله .

بتشعير المشاعر عرف أن لا مشعر له ، وبمضادته بين الأمور عرف أن لا ضد له ، وبمقارنته بين الأشياء عرف أن لا قرين له، ضاد النور بالظلمة ، والوضوح بالبهمة ، والجمود بالبلل ، والحرور بالصرد ، مؤلف بين متعادياتها ، مفارق بين متبايناتها، مقرب بين متباعدتها ، مبعد بين متدانياتها ، لا يشمل بحد ، ولا يحسب بعد ، وإنما تحد الأدوات أنفسها ، وتشير الآلات إلى نظائرها ، منعتها « منذ » القدمة وحمتها « قد » الأزلية ،

وجنبتها « لولا » التكملة ، بها تجلى صانعها للعقول . وبها امتنع عن نظر العيون ، لا يجري عليه السكون والحركة . وكيف يجري عليه ما هو أجراه ، ويعود فيه ما هو أبداه . ويحدث فيه ما هو احدثه ؛ إذاً لتفاوتت ذاته ، ولتجزأ كنهه . ولامتنع من الأزل معناه ؛ ولكان له وراء ، إذا كان له أمام ، ولا التمس التمام ، إذا لزمه النقصان ، وإذاً لقامت آية المصنوع فيه ، ولتحول دليلاً بعد أن كان مدلولاً عليه ، وخرج بسلطان الامتناع من أن يؤثر فيه غيره ، الذي لا يحول ، ولا يزول ، ولا يجوز عليه الأفول » .

إلى أن قال :

« وإن الله سبحانه وتعالى يعود بعد فناء الدنيا وحده ، لا شيء معه ، كما كان قبل ابتدائها ، كذلك يكون بعد فنائها ، بلا وقت ، ولا مكان ، ولا حين ، ولا زمان . عدمت عند ذلك الآجال والأوقات ، وزالت السنون والساعات ؛ فلا شيء إلا الواحد القهار ، الذي إليه مرجع جميع الأمور » [1] .

لقد بين عليه السلام في كلماته تلك جمل الصفات الثبوتية ، والسلبية .. كماوأوضح عليه السلام أن قبليته وبعديته تعالى إنما هي بالنسبة إلى الخلقة ، وليس قبليته وبعديته تعالى من سنخ القبلية والبعدية الزمانيين .. وقد أشار إلى هذا في كلامه السابق بقوله : « وإن قيل : لم يزل ، فعلى تاويل نفي العدم » .

---

(١) نهج البلاغة ص ١٨١ .

- ٨ -

في رؤيته تعالى

ومن كلام له (ع) وقد خاطب به رجلاً يقال له : ذعلب، إذ كان قد قال له : يا أمير المؤمنين ، « **هل رأيت ربك** » ؟ فقال (ع) : « **ويلك يا ذعلب ما كنت أعبد رباً لم أره** » .

قال : يا أمير المؤمنين ، « **كيف رأيته** » ؟ فقال (ع) :

« **يا ذعلب لم تره العيون بمشاهدة الأبصار ، ولكن رأته القلوب بحقائق الأيمان ... يا ذعلب** » ..

إن ربي لطيف اللطافة ؛ فلا يوصف باللطف ، عظيم العظمة فلا يوصف بالعظمة ، كبير الكبرياء لا يوصف بالكبر ، جليل الجلالة ، لا يوصف بالغلظ ، قبل كل شيء ، لا يقال شيء قبله ، وبعد كل شيء ؛ فلا يقال : شيء بعده ، شاء الاشياء لا بهمة ، دَّراك لا بخديعة ، هو في الأشياء كلها ، غير متمازج بها ، ولا بائن عنها ، ظاهر لا بتأويل المباشرة ، متجل لا باستهلال رؤية ، بائن لا بمسافة ، قريب لا بمداناة ، لطيف

لا بتجسّم ، موجود لا بعدم ، فاعل لا باضطرار ، مقدر لا بحركة مريد لا بهمامة ، سميع لا بآلة ، بصير لا بأداة ، لا تحويه الأماكن ، ولا تصحبه الأوقات ، ولا تحده الصفات ، ولا تأخذه السنات ، وسبق الأوقات كونه ، والعدم وجوده ، والابتداء أزله .

بتشعيره المشاعر عرف أن لا مشعر له ، وبتجهيزه الجواهر عرف أن لا جوهر له ، ضاد الظلمة بالنور ، والجمود بالبلل ، والصرد بالحرور ، مؤلف بين متعادياتها ، مفرق بين متداناياتها ، دالة بتفريقها على مفرقها ، وبتأليفها على مؤلفها ، وقوله عز وجل : ﴿ ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون ﴾ [1] ، ففرق بها بين قبل وبعد ؛ ليعلم أن لا قبل له ، ولا بعد ، شاهدة بغرائزها أن لا غريزة لمغرِّزها ، مخبرة بتوقيتها أن لا وقت لموقتها ، حجب بعضها عن بعض ؛ ليعلم أن لا حجاب بينه وبين خلقه غير خلقه ، كان رباً إذ لا مربوب ، وإلهاً إذ لا مألوه ، وعالماً إذ لا معلوم ، وسميعاً إذ لا مسموع .. ثم انشأ عليه السلام يقول :

ولم يزل سيدي بالحمد معروفاً
ولم يزل سيدي بالجود موصوفاً » [2]

إلى آخر الأبيات ..

---

(١) سورة الذاريات ، الآية ٥١ .

(٢) توحيد الصدوق ص ٣٠٨ .

فقد رأينا : أنه عليه السلام في كلماته هذه : قد شرح معنى التشبيه والتنزيه في صفاته تعالى وبيَّنهما ، أروع شرح ، وأوفى بيان .. كما وفسر معنى تعلق الرؤية به تعالى ، وأنها ليست بمباشرة الحمم ، ولا باستهلاك نظرةٍ من العين ، ولا بادراك توصيف من العقل ، بل يُرى بحقيقة الإيمان .. ويتضح معنى قوله : « حقيقة الإيمان » من قوله : « حجب بعضها عن بعض؛ ليعلم أن لا حجاب بينه وبين خلقه غير خلقه » ؛ حيث دل كلامه هذا على أن الخلق تحجبهم أنفسهم عنه تعالى .. أما إذا أخلص المؤمن إيمانه لربه ثم أكمل الاخلاص له بنفي الصفات عنه « راجع قوله في الفصل الثاني : وكمال توحيده الاخلاص له » . ولم يعد قلبه متعلقاً بشيء سوى ربه ، فحينئذٍ لا يبقى شيء يحجب ربه عنه ، ويراه بحقيقة الإيمان .

وقوله (ع) : « حجب بعضها عن بعض ؛ ليعلم أن لا حجاب بينه وبين خلقه غير خلقه » . من روائع الكلام ، الذي لم يسبقه إليه أحد .. وقد بنى كلامه فيه على ما قدمه من كلامه في نفي الحدود ، التي للمخلوقات ـ نفيها ـ عن خالقها عز أسمه .

ويوجد نظير هذا البيان في كلام سابع أئمة أهل البيت (ع) قال (ع)

« إن الله تبارك وتعالى كان لم يزل بلا زمانٍ ، ولا مكان ،

وهذه الموجودات المتوسطة تتقبل الفيوضات من الواجب تعالى ثم تعكسها وتردها إلى ما دونها ؛ وذلك لفعلية الكمال فيها وتدريجيته فيما دونها .

وهذا البحث متشعب وطويل ، مذكور في محله من الكتب الفلسفية ، وكلامه عليه السلام أوجز كلام ، يتضمن الحقائق التي اثبتتها البراهين والأدلة في هذا الباب ..

-١٢-

في معنى القدر

ومن كلامه (ع) في القدر، ما ورد: أنه جاء إليه رجل فقال: «يا أمير المؤمنين، أخبرني عن القدر»، فقال (ع): «**بحر عميق**، **فلا تلجه**» فقال: «يا أمير المؤمنين، أخبرني عن القدر» فقال (ع): «**طريق مظلم**؛ **فلا تسلكه**»، قال: «يا أمير المؤمنين، أخبرني عن القدر»، فقال أمير المؤمنين عليه السلام: «**أما إذا أبيت، فإني سائلك. أخبرني: أكانت رحمة الله للعباد قبل أعمال العباد، أم كانت أعمال العباد قبل رحمة الله**؟». فقال الرجل: «بل كانت رحمة الله للعباد قبل أعمال العباد».

فقال أمير المؤمنين (ع): «قوموا؛ فسلموا على أخيكم؛ فقد أسلم. وقد كان كافراً».. قال الراوي: وأنطلق الرجل غير بعيد. ثم أنصرف إليه، فقال له: «أبالمشيئة الأولى نقوم ونقعد يا أمير المؤمنين، ونقبض ونبسط؟».

فقال له أمير المؤمنين (ع): «وإنك لبعد في المشية ؟.

أما إني سائلك عن ثلاث ، لا يجعل الله لك في شيء منها مخرجاً .. أخبرني : أخلق الله العباد كما شاء أو كما شاؤا ؟ » ، فقال : « كما شاء » ، قال (ع) : فخلق الله العباد لما شاء ، أو لما شاؤا؟ » فقال : « لما شاء » ، فقال (ع) : « يأتونه يوم القيامة كما شاء ،أو كما شاؤا ؟ » ، قال : « كما شاء » ، فقال عليه السلام : « قم؛ فليس إليك من المشية شيء » [1] .

مسألة ثبوت القدر معناها أن لله تعالى تأثيراً في الأفعال ، بحسب ما يليق بساحة عزه تعالى . ونلاحظ أنه (ع) قد بنى هذه المسألة على مسألة أن للصفات الفعلية في الجملة أصلاً في الصفات الذاتية ، وارتباطاً بالذات . وإذا كانت الصفات الفعلية مرتبطة بالأفعال ، فيثبت بعد هذا أن ألأفعال كسائر الحوادث الأخرى ، مقدرة بتقديره تعالى ، غير منقطعة عنه « وهذا بخلاف ما يقوله المفوضة ، من انقطاعها عنه تعالى » .

وقد أشرنا في الفصل الثامن أن هذه المسألة من معضلات المسائل الفلسفية ..

فالذي يقضي به البحث والدراسة في صفاته تعالى الفعلية ، كالرضا والغضب ، والرأفة ، والأحياء ، والإماته ، والرازقية ، والهداية ، ونحو ذلك .. هو أنها لا تتصف بها الذات اتصافاً حقيقياً ـ على حد اتصافها بالعلم والقدرة ـ وذلك لأنها حادثة

(١) التوحيد ص : ٣٦٥ / ٣٦٦ .

بحدوث متعلقها ، وهو زيد مثلاً . مرحوم مرزوق مهدي وهكذا .. وعليه فحقيقة هـذه الصفات ، الـرضا والسخط الخ .. هي أنها نسب يعطيها حال المتعلق إذا قيس إلى الواجب تعالى : فزيد مثلاً من حيث حصوله على ما يحفظ به بقاء ذاته من الغذاء ونحوه ، يكون حاله شبيهاً بحال من يرتزق برزقٍ من رازق ، وبهذه الوسيلة صح أن يقال للغذاء ونحوه أنه : رزق من الله ، ولزيد أنه مرزوق ، وللواجب تعالى أنه رازق . وعلى هذا القياس ..

وعليه .. فالصفات المسماة بالصفات الفعلية أمور زائدة على الذات الآلهية المقدسة ، ترجع حقيقتها إلى ما يسمى في علم البيان بـ « الاستعارة التمثيلية » ..

ولكننا إذا تعمقنا في الدراسة والبحث في التوحيد نصل إلى حقيقة أعمق وادق من ذلك ، وهي : أن الوجود بجميع شؤونه، وكافة النسب والمعاني المترتبة عليه يرجع إليه تعالى عـلى نحو يليق بساحة عزه وقدسه .

فهذه الصفات الفعلية ، وإن كانت نسباً حادثة ، أساسها نوع من المجاز ، إلا أن لها نوع قيام ، واتصال به تعالى على نحو الحقيقية .. وإن قصر بياننا أو فكرنا عن تصويره ، وكشف حقيقته وهويته . فهي كما أنها تتعلق بالاشياء في الظاهر ، وترتبط تلك الاشياء أيضاً بها ، ومنها أفعال الانسان ، لها نوع تعلق

وارتباط بالله سبحانه ، على نحو يليق بساحته ، وإن كان البيان عاجزاً عن إيضاح ذلك كل الايضاح ...

فقوله (ع) : « أخبرني أكانت رحمة الله للعباد قبل أعمال العباد ، أم كانت أعمال العباد قبل رحمة الله ؟ » . استدلال على تعلق القدر بأفعال العباد ؛ بتقدم رحمته تعالى على أعمالهم ؛ إذ أن ذوق التوحيد يأبى أن يقال (إذا رحم الله عبداً ؛ فغفر له ذنبه) : إن رحمته تعالى حدثت بحدوث الفعل ، أو بعد الفعل ، كما ويأبى أن يقال : إن قولنا رحم الله زيداً فرزقه ما يحفظ به بقاءه من الغذاء ونحوه مثلاً .. معناه : « أكل زيد » وهكذا ..

وفي قوله (ع) : « أخبرني أخلق الله العباد كما شاء أو كما شاؤا ؟ » استدلال على ثبوت القدر .. بأن الله سبحانه إنما خلق عن إرادة منه ، متقدمة عليهم ، ومتعلقة بجميع شؤون وجودهم ، ومنها أفعالهم ، وليس بغافل عما يعملون [١] .

وليس بمغلوب في ارادته تلك ، ولن يستقل العباد في اراداتهم ، ومشيئتهم واختيارهم ، وعدم استقلالهم هذا لا يعني ابطال تأثيرهم ؛ فالله سبحانه أراد منهم أن يختاروا « كذا » باختيارهم ﴿ **وما تشاؤون إلا أن يشاء الله** ﴾[٢] .. والبحث موكول إلى محله ..

---

(١) اقتباس من سورة الأنعام ، الآية : ١٢٣ .
(٢) سورة : الأنسان ، الآية : ٣٠ .

ـ ١٣ ـ

في توضيح إستطاعة العباد

ومن كلامه (ع) في معنى ملكه لما يملكه غيره ، ما قاله عباية بن ربعي الاسدي ، وقد سأله عن الاستطاعة ، التي بها نقوم ، ونقعد ، ونفعل ـ قال له (ع) ـ : « **إنك سألت عن الاستطاعة ، فهل تملكها من الله أو مع الله ؟** » . فسكت عباية .

فقال أمير المؤمنين (ع) : « **إن قلت إنك تملكها مع الله قتلتك . وإن قلت أنك تملكها دون الله قتلتك** » . فقال عباية : « فما أقول يا أمير المؤمنين ؟ » .

قال (ع) : « **تقول : أنك تملكها بالله الذي يملكها من دونك ؛ فإن ملكّك إياها كان ذلك من عطائه ، وأن سلبكها كان ذلك من بلائه ؛ فهو المالك لما ملكك ، والقادر على ما عليه أقدرك** » (١) .

---

(١) تحف العقول ص ٢١٣ .

بنى (ع) معنى ملك الاشياء لآثارها ، وسببيتها لها ، ومنها استطاعة الانسان ، وملكه لفعله ـ بنى ذلك ـ على أساس توحيد الأفعال ؛ فإن قوله : « **إن قلت كذا قتلتك** » مشعر بأنه بنى المسألة على التوحيد ؛ فلازم توحيده تعالى أن لا يستقل دونه مؤثر في التأثير في أثره ، فكل سبب من عنده ، بمعنى أن ذات السبب ، ووصف سببيته كليهما مملوكان لله تعالى ، والأثر الذي يملكه السبب أيضاً مملوك لله تعالى ، فالذي يملك الأثر حقيقة هو الله سبحانه ، والمؤثر والسبب لا يملك أثره إلا بتمليكٍ من الله سبحانه ؛ فهو في الحقيقة ملك في ملك ..

ويمكن أن يتضح ذلك إلى حدٍ مّا بالتأمل في المثال التالي :

إن الانسان يتخذ بعض الصور الخيالية ذوات الأفعال والآثار ، وهو المخترع لتلك الصور ، والفاعل لها ، وهي أيضاً فواعل في آثارها ، كما لو تصورت انساناً خيالياً ، يأكل ويشرب ، ويحسن إلى إنسان ثانٍ ، ويقتل إنساناً ثالثاً بغير حق ، فالإنسان الخيالي المفروض مالك لآثاره ، فاعل لها ، وأنت مالك له ولآثاره ، فاعل لها ، وتنسب هذه الآثار إليه ، وأنه موجد لها ، وآكل ، وشارب ، ومحسن ، وقاتل ظلماً ، وأما أنت فينسب إليك أنك موجد لها ، ولا يطلق عليك أنك آكل ، وشارب ، أو محسن ، أو قاتل ظلماً ، ونحو ذلك ..

نهاية المطاف

هذا ما ارتأيت إيراده من مختار كلامه عليه السلام في الفلسفة الآلهية ، رغم قصر الباع ، وضيق المجال ، لكنه على قلته ، ووجازته يفي بالغرض من إيراده ، وهذا الغرض يمكن تلخيصه بثلاثة أمور :

الأول : أن يتحقق أهل العلم ، والنقد ، والبصيرة من الباحثين في الفلسفة ، من أنه (ع) أول من برهن واستدل ، في الفلسفة الآلهية ، في هذه الأمة ، فله الفضل والمنة على كل من سواه من العلماء ، والباحثين في هذا العلم ؛ فإنه هو الذي فتح لهم باب الاستدلال البرهاني في المعارف الآلهية .

الثاني : أن نعطي للباحثين عن تاريخ الفلسفة ، وتاريخ طرح مسائلها المتنوعة على بساط البحث ، وعن تطورها في البحث والدراسة ـ نعطيهم نبذة ذات أهمية كبرى بالنسبة لهم .. إذ أنهم لو رجعوا إلى تاريخ طرح المسائل المعنونة في كلامه (ع) على

بساط البحث، لتيقنوا بما لا مجال معه لأي شك أو ترديد، أنه (ع) قد أتى بمسائل في الفلسفة الآلهية ، لم يسبقه إلى التنبه إليها أحد، كما أنه فيما أقامه عليها من البراهين ، ووضعه لها من الحلول كان رائداً متفرداً لم يسبقه لها الأولون ، ولم يتنبه لها الآخرون ، إلا بعد قرون وقرون ، وقد بقيت روائع أنظاره العالية رهن الابهام قروناً متتالية ، بعد زمانه ، حتى وفق لكشفها ، والوقوف عليها، ثلة من جهابذة العلم ، وافذاذ المفكرين ..

الثالث : إنه عليه السلام أول من استخدم الألفاظ العربية لبيان المقاصد الفلسفية ، التي لا تفي بها الألفاظ ـ في اللغة العربية ـ بمعانيها الشائعة ، واستعمالاتها المتعارفة ، إلا بعدتجريدها ـ على نحوٍ مّا ـ عن غواشي المادة ، وشوائب الخصوصيات ، من ذلك قوله (ع) : « **منعتها** « **منذ** » **القدمة** ، **وحمتها** « **قد** » **الأزلية** ، **وجنبتها** « **لولا** » **التكملة** » ، وقوله (ع) : « **إن قيل** : **كان** ، **فعلى تأويل الأزلية** ، **وإن قيل** : **لم يزل** ، **فعلى تأويل نفي العدم** »، وقوله : « **واحد لا من عدد** ، **دائم لا بأمد** » ، وغير ذلك من الألفاظ ، كلفظ الحقيقة ، ولفظه : القوة ، ولفظ : الاستعداد، ولفظي : العلة ، والمعلول ، وغير ذلك ..

وقد فرغ المؤلف من تأليف هذه الرسالة سنة : تسع وسبعين وثلاثماية بعد الألف هجرية ، تلبية لرغبة بعض الأخوان العراقيين

الفهرس